بعد ذلك تسلسلت الخلافة من الخليفة إلى ابنه حتى انتهت الدولة بظهور التتار حيث أغار هولاكو خان حفيد جنكيزخان موحد التتر وقتل المستعصم (سنة ٦٥٦). وخلاصة القول أن ولاية العهد في النصف الأول من خلافة بني العباس كانت جارية على السنن المعيب وهو تولية أكثر من واحد، فترتب على ذلك شرور كثيرة وكوارث عظيمة ولم يلتفت أحد منهم لوضع نظام لذلك مع ما كانوا عليه من العلم والعرفان. أما البيعة فكانت في الصدر الأول عبارة عن المصافحة وقول المبايع أبايعك على السمع والطاعة على العمل بكتاب اللّه وسنّة نبيه ﷺ ثم زيدت عليه أيمان في أواخر الدولة الأموية وزادت الأيمان كثيراً في أوائل عهد الدولة العباسية. ويظهر لكم ذلك من ختام العهدين اللذين كتبهما الأمين والمأمون وحفظا في البيت الحرام. وقد أثارت تلك الأيمان مسألتين شرعيتين بمكان عظيم من الأهمية:

أولاهما: طلاق المكره، لأنه لا يخفى أن من ضمن تلك الأيمان يمين الطلاق. من رأي فقهاء الحجاز أن ليس للمكره يمين وقد أفتى مالك بعدم وقوع طلاق المكره وكان ذلك سبباً لإهانات شديدة أصابته في عهد المنصور ثاني خلفاء العباسيين، وقد تغلب بسبب ذلك رأي فقهاء العراق أن طلاق المكره واقع.

الثانية: إضافة الطلاق إلى الزوجة التي لم تكن وقت اليمين، فإن البيعة لم تكن لتكتفي بطلاق الزوجات الموجودات بل تعدت ذلك إلى من يتزوجهن الحالف إلى خمسين سنة أو ثلاثين سنة، وكذلك إضافة العتق إلى المملوكين الذين يحدثون بعد البيعة إلى أجل معين أو غير معين. قال فقهاء العراق: إن ذلك صحيح ويلحق الطلاق من يتزوجها الحالف. وخالف ذلك بعض فقهاء الحجاز كالشافعي محمد بن إدريس، وقد تغلب طبعاً رأي فقهاء العراق.

١ ـ السفاح

هو أبو العباس عبد اللّه بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس. وأمه ريطة بنت عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عبد المدان الحارثي. ولد (سنة ١٠٤) بالحميمة وهي القرية التي كان أبوه وجده نازلين بها، وكان أبوه قد عهد بأمر الدعوة لابنه إبراهيم، ولما أحس إبراهيم باقتراب منيته عهد لأخيه أبي العباس وأمره أن يسير بأعمامه وأهل بيته إلى الكوفة، فسار إليها وبويع بالخلافة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول (سنة ١٣٢ ـ ٣٠ أكتوبر سنة ٧٤٩)، وكان مروان لا يزال حياً، ثم قتل مروان لثلاث بقين من ذي الحجة (سنة ١٣٢ ـ ٥ أغسطس ٧٥٠). ومن هذا اليوم يبتدىء التاريخ خلافة أبي العباس ولم يزل خليفة إلى أن توفي بمدينة الأنبار يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة (سنة ١٣٦ ـ ٩ يونية سنة ٧٥٤) فتكون خلافته

أربع سنوات وتسعة أشهر من لدن بويع إلى أن مات وأربع سنوات وأربعة عشر يوماً من لدن قتل مروان.

وكان يعاصره في مملكة الروم الشرقية بالقسطنطينية قسطنطين الخامس (٧٤١ ـ ٧٧٥) وكان يملك فرنسا في عهده بابن ببراف من العائلة الثانية الكارولونجيانية. ابتدأ ملك أبي العباس بالكوفة ومنها انتقل إلى الحيرة ثم إلى الأنبار ولم يكن بنو العباس يثقون بأهل الكوفة، لأنهم كانوا يتشيعون لآل أبي طالب.

الأحوال الداخلية:

لم تكن هزيمة مروان وقتله منتهى متاعب العباسيين فإنه كان لا يزال في الأمة العربية قواد ضلعهم مع بني أمية، ولا يزال عندهم شيء من القوة فكانوا يثورون إما خوفاً على أنفسهم من بني العباس الذين أظهروا قسوة شديدة في معاملة مغلوبيهم وإما طمعاً في إعادة تلك الدولة العربية التي كان لهم منها نصيب وافر، فقضى أبو العباس أكثر حياته في إخماد تلك الثورات التي كانت كثيرة ولا سيما بالشام والجزيرة والتغلب على يزيد بن هبيرة الذي كان أمير العراق لمروان بن محمد وتحصن بمدينة واسط بعد غلبة العباسيين على الكوفة وما معها.

وقد كانت حياته مفعمة بحوادث القسوة التي لم يشهد التاريخ مثلها مع بقايا بني أمية ومع غيرهم من أولياء الدولة الذين كان لهم الأثر المحمود في إحيائها.

من الناس من إذا ظفر بخصومه قابلهم بالعفو عن ماضيهم واستصلح بذلك قلوبهم، ولعمري إن ذلك لمن عزم الأمور، وليس يكون إلا ممن استشعر من نفسه تمام القدرة ورأى أن سلطانه إنما يتم إذا ائتلفت القلوب المتنافرة. فأما من خاف عود القوة إلى عدوه المغلوب أو كان يرى سلطانه لا يكون إلا على فرقة رعيته فإنه يقسو على من ظفر به قسوة تختلف بحسب الأحوال والاستعداد.

انظروا إلى ما فعله رسول اللّه ﷺ حينما ظفر بخصومه أهل مكة وهم الذين تحالفوا على قتله وأخرجوه من بلده ثم جردوا السيوف لحربه وهيجوا الأحزاب من قبائل العرب ليكونوا عليه في دار هجرته إنهم فعلوا ذلك. لكنه لما ظفر بهم في السنة الثامنة من الهجرة قال لهم: ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم! فقال لهم كما قال يوسف الصديق: ﴿**لا تثريب عليكم اليوم يغفر اللّه لكم وهو أرحم الراحمين**﴾[1]. أما بنو العباس فقد قسوا في معاملة بني أمية قسوة ربما لم نجد لها مثلاً في الدول التي قامت على أثر دولة أخرى. فعل ذلك السفاح

(١) سورة: يوسف، الآية: ٩٢.

بالعراق وعبد اللّه بن علي بالشام ونهر أبي فطرس وسليمان بن علي بالبصرة وداوود بن علي بالحجاز.

فأما السفاح فقد روى أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الأغاني بسنده قال: كان أبو العباس جالساً في مجلسه على سريره وبنو هاشم دونه على الكراسي وبنو أمية على الوسائد قد ثنيت لهم، وكانوا في أيام دولتهم يجلسون هم والخلفاء منهم على السرير ويجلس بنو هاشم على الكراسي فدخل الحاجب فقال: يا أمير المؤمنين بالباب رجل حجازي أسود راكب على نجيب متلثم يستأذن ولا يخبر باسمه ويحلف ألا يحسر اللثام عن وجهه حتى يراك، قال: هذا مولاي سديف يدخل فدخل، فلما نظر إلى أبي العباس وبنو أمية حوله حسر اللثام عن وجهه وأنشأ يقول:

أصبح الملك ثابت الأساس ... بالبهاليل من بني العباس
بالصدور المقدمين قديماً ... والرؤوس القماقم الرؤاس
يا أمير المطهرين من الذم ويا ... رأس منتهى كل رأس
أنت مهدي هاشم وهداها ... كم أناس رجوك بعد إياس
لا تقيلن عبد شمس عثاراً ... واقطعن كل رقلة وغراس
أنزلوها بحيث أنزلها اللّه ... بدار الهوان والأتعاس
خوفهم أظهر التودد منهم ... وبهم منكم كحز المواسي
أقصهم أيها الخليفة واحسم ... عنك بالسيف شأفة الأرجاس
واذكرن مصرع الحسين وزيداً ... وقتيلاً بجانب المهراس
والإمام الذي بحران أمسى ... رهن قبر ذي غربة وتناسي

فتغير لون أبي العباس وأصابه زمع ورعدة فالتفت بعض ولد سليمان بن عبد الملك إلى رجل منهم فقال: قتلنا واللّه العبد، ثم أقبل أبو العباس عليهم وقال: يا بني الفواعل أرى قتلاكم من أهلي قد سلفوا وأنتم أحياء تتلذذون بالدنيا خذوهم فأخذتهم الخراسانية بالكافركوبات فأهمدوا، إلا ما كان من أمر عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز فإنه استجار بداوود بن علي فأجاره واستوهبه من السفاح.

وهذا عمل شنيع جداً ولولا تضافر الروايات بالحادثة لما تحملنا عناء تسطيرها، وقد بلغ الضعف الإنساني حده بالرجل ولا يستغرب هذا الفعل من جماعة كان من أصولهم قتل أوليائهم لأقل ريبة أو شبهة. وهؤلاء أعداؤهم بالأمس يخافون أن يكون لهم أنصار فيعيدون الحرب جذعة.

ودخل سديف هذا على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك فأنشده:

لا يغرنك ما ترى من أناس إن تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فأمر السفاح بسليمان فقتل. ومما قاله سديف هذا يهيج السفاح:

كيف بالعفو عنهم وقديماً قتلوهم وهتكوا الحرمات
أين زيد وأين يحيى بن زيد يا لها من مصيبة وترات
والإمام الذي أصيب بحرا ن إمام الهدى وراس الثقات
قتلوا آل أحمد لا عفا الذنب لمروان غافر السيئات

وأما عبد اللّه بن علي فكان للأمويين منه يوم عصيب بنهر أبي فطرس بالشام تتبع من كان بالشام من أولاد الخلفاء وغيرهم، فأخذوهم ولم يفلت منهم أحد إلا رضيع أو من هرب إلى الأندلس فقتلهم، ولما فرغ من قتلهم قال:

بني أمية قد أفنيت جمعكم فكيف لي منكم بالأول الماضي
يطيب النفس أن النار تجمعكم عوضتم من لظاها شر معتاض
منيتم لا أقال اللّه عثرتكم بليث غاب إلى الأعداء نهاض
إن كان غيظي لفوت منكم فلقد منيت منكم بما ربي به راضي

ولم يكفه ذلك بل عمد إلى قبور بني أمية فنبشها حتى يمحو آثارهم، فنبش قبر معاوية بن أبي سفيان فلم يجدوا فيه إلاّ خيطاً مثل الهباء، ونبش قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاماً كأنه الرماد، ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا جمجمته وكان لا يوجد في القبر إلا العضو بعد العضو غير هشام بن عبد الملك فإنه وجد صحيحاً لم تبل منه إلا أرنبة أنفه فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذراه بالريح.

وأما سليمان بن علي فإنه قتل بالبصرة جماعة منهم أحضرهم وعليهم الثياب الموشية فأمر بهم فقتلوا وجروا بأرجلهم فقتلوا على الطريق.

وأما داوود بن علي فقتل منهم بمكة والمدينة عدداً وافراً، وكان قد حضر إلى مكة ومعه عدد من بني هاشم وعدد من بني أمية فأنشده إبراهيم بن هرمة قصيدة يقول فيها:

فلا عفا اللّه عن مروان مظلمة ولا أمية بئس المجلس البادي
كانوا كعاد فأمسى اللّه أهلكهم بمثل ما أهلك الغاوين من عاد
فلن يكذبني من هاشم أحد فيما أقول ولو أكثرت تعدادي

فشمر عن ساعده في قتل الأمويين حتى لم يبق أحداً إرضاءً لشهوة الانتقام التي تمكنت من

قلوب بني العباس ولم تخجلهم تلك الوحشية القاسية.

ومما قيل من الكلام الجيد في رثاء هؤلاء التعساء ما قاله مولاهم عبد اللّه بن عمر الغبلي:

تقول أمامة لما رأت ... نشوزي عن المضجع الأنفس
وقلة نومي على مضجعي ... لدى هجعة الأعين النعس
أبي ما عراك؟ فقلت الهمو ... م عرون أباك فلا تبلسي
لفقد الأحبة إذ نالها ... سهام من الحدث المبئس
رمتها المنون بكل نكل ... ولا طائشات ولا نكس
بأسهمها المتلفات النفو ... س متى ما تصب مهجة تخلس
فصرعاهم في نواحي البلا ... د ملقى بأرض ولم يرمس
تقي أصيب وأثوابه ... من العيب والعار لم تدنس
وآخر قد دس في حفرة ... وآخر قد طار لم يحس
إذ عن ذكرهم لم ينم ... أبوك وأوحش في المجلس
فذلك الذي غالني فاعلمي ... ولا تسألي بامرىءٍ متعس
أذلوا قناتي لمن رامها ... وقد ألصقوا الرغم بالمعطس

وكانت هذه المعاملة الشنيعة سبباً لهروب يعسوبهم عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك إلى المغرب وتأسيسه بها مملكة واسعة الأطراف أعاد فيها مجد بيته وكانت تناصي في العلو والاحترام خلافة بني العباس في المشرق على صغر رقعتها.

لم يزل بنو العباس يسومون بقايا بني أمية سوء العذاب فاختفى بعضهم وهرب بعضهم وكان ممن اختفى عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان، فلما رأى أنه لا يكون في قبلة ولا ناحية إلا شهر أمره بها اعتزم أن يفدي حرمه بنفسه وصار إلى سليمان بن علي بالبصرة، فقال له: أصلح اللّه الأمير لفظتني البلاد إليك ودلني فضلك عليك، فإما قبلتني غانماً وإما رددتني سالماً، فقال: ومن أنت؟ ما أعرفك فانتسب له فقال سليمان: مرحباً بك اقعد تتكلم آمناً غانماً ما حاجتك؟ فقال: إن الحرم اللواتي أنت أقرب الناس إليهن معنا وأولى الناس بهن بعدنا قد خفن لخوفنا ومن خاف خيف عليه، فدمعت عينا سليمان ثم قال: يا ابن أخي يحقن اللّه دمك ويحفظك في حرمك ويوفر عليك مالك واللّه لو أمكنني ذلك في جميع أهلك لفعلت فكن متوارياً كظاهر وآمناً كخائف ولتأتني رقاعك فكان عمرو يكتب إليه كما يكتب الرجل إلى أبيه وعمه. ثم كتب سليمان إلى السفاح: (يا أمير المؤمنين إنه قد وفد وافد من بني أمية علينا وإنّا إنما قتلناهم على عقوقهم لا على أرحامهم فإننا يجمعنا وإياهم عبد مناف والرحم تبل ولا تقطع وترفع ولا توضع

obeikandi.com

فإن رأى أمير المؤمنين أن يهبهم لي فليفعل وإن فعل فيجعل كتاباً عاماً إلى البلدان نشكر اللّه تعالى على نعمه عندنا وإحسانه إلينا) فأجابه إلى ما سأل، فكان هذا أول أمان بني أمية بعد أن بدد شمل سرواتهم قتلاً وتشريداً واطمأن من جهتهم بال السفاح، ولكن بعد أن فتح على نفسه وعلى من يخلفه بعده من آل بيته فتحاً لا يمكنه رتقه وهو وجود خلافة أخرى إسلامية بالجنوب الغربي من قارة أوروبا.

ولم تكن الشدة في المعاملة قاصرة على أعدائهم بل نال أولياءهم منها شيء عظيم لا ننسى أن من أعظم الرجال أثراً في قيام هذه الدولة أبا سلمة حفص بن سليمان الذي كان يقال له وزير آل محمد: لما تم الأمر لبني العباس اتهموه بأنه كان يريد تحويل الخلافة عنهم إلى آل علي بن أبي طالب وكانوا يريدون قتله، لكنهم أحبوا مشاورة أبي مسلم في ذلك، فبعث السفاح أخاه أبا جعفر إلى خراسان لمقابلة أبي مسلم واستشارته في ذلك فسار أبو جعفر حتى جاء مرو وهناك أخبر أبا مسلم خبر أبي سلمة فقال: أكفيكموه ثم انتدب رجلاً وأمره أن ينطلق إلى الكوفة فيقتل أبا سلمة حيث لقيه فقدم الرجل الكوفة وتربص لأبي سلمة حتى خرج من عند السفاح وقتله غيلة في طريقه وأشاعوا أن الخوارج قتلوه ثم قتل بعد ذلك أبو مسلم جميع عماله بفارس هكذا ذهبت حياة هذا الرجل ذي الأثر الصالح في دولتهم من غير تحقيق أمره ولا استماع لحجته بل فعلوا به فعل من لا نظام لهم ولا دولة.

وفي هذا الوقت اتهم أبو مسلم بتلك التهمة رجلاً آخر لا يقل أثراً عن أبي سلمة وهو سليمان بن كثير الذي قال في حقه إبراهيم الإمام: (ولا تخالف هذا الشيخ ولا تعصه وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني) فأحضره وقال له: أتحفظ قول الإمام لي من اتهمته فاقتله؟ قال: نعم، قال: فإني قد اتهمتك، فقال: أنشدك اللّه قال: لا تناشدني اللّه وأنت منطوٍ على غش الإمام فأمر به فضرب عنقه. قتل الرجل بعد استقرار الأمر بمجرد تهمة لم تظهر للناس صحتها ولم تنفعه سابقته ولا حسن أثره.

وعلى الجملة فإن حياة أبي العباس انقضت كلها في الخلاص من بني أمية والاطمئنان من جهة كل من يرتابون في إخلاصه فسفكت دماء كثيرة وأحدثت قدوة سيئة في نكث العهود واغتيال المخالفين.

وكان أكبر الرجال في عهده الذين لهم سلطان ونفوذ وشدة عزيمة ثلاثة رجال:

١ ـ أبو مسلم الخراساني بالمشرق.

٢ ـ أبو جعفر المنصور بالجزيرة وأرمينية والعراق.

٣ ـ عبد اللّه بن علي بالشام ومصر، فهؤلاء الثلاثة كانوا أساطين دولته وعلى أيديهم كان كل ما يجري فيها من خير وشر إلا أن هؤلاء الثلاثة لم يكن عندهم إخلاص بعضهم لبعض فإن أبا جعفر كان يحسد أبا مسلم على سلطانه النافذ وكلمته المطاعة حتى طلب من السفاح أن يغتاله وأكثر في ذلك، وكان السفاح يوافقه لولا خوفه من الخراسانية أن يعيدوا الحرب جذعة. وعبد اللّه بن علي كان يطمع أن تكون الخلافة له بعد السفاح لما له من سابق الخدمة في تأسيس الدولة وأنه الذي قام بهزيمة مروان وقطع دابر بني أمية وكان يخاف أن يفوز بها أبو جعفر. فكانت هذه الأفكار سبباً في حوادث جسام سيمر بكم ذكرها.

أراد أبو مسلم القدوم من مرو على السفاح فكتب إليه يستأذنه في الحج وأذن له، ولما كان السفاح لا يميل إلى تولية أبي مسلم موسم الحج أرسل إلى أخيه أبي جعفر يأمره أن يستأذنه في الحج ففعل وأذن له وبطبيعة الحال ولاه الموسم، ولم يكن لأبي مسلم أن يظهر اشمئزازه من تقدم أبي جعفر عليه وإن كان قد قال شيئاً من ذلك لبعض خاصته حيث قال: أما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا.

ولما وصل أبو مسلم الأنبار قال له السفاح: لولا أن أبا جعفر أرسل إليّ يستأذني في الحج هذا العام لوليتك الموسم. وقد حج في هذا العام وهو (سنة ١٣٦) فحلان ومرا من طريق واحدة يقدم أحدهما الآخر، وكان أبو مسلم يظهر من قوته وكرمه في الطريق ما يزيد في حسد أبي جعفر له وكان ذلك من متممات عزمه على الفتك به.

كان معظم الولاة للسفاح من أعمامه وبني أعمامه. وكان في عهده من الإصلاح الداخلي ضرب المنار والأميال من الكوفة إلى مكة وكانوا يمسحون الأرض بالذراع الهاشمية وعند تمام الميل يكتبون عليه كلمة واحد ثم اثنين وهكذا وقد جعلوا في الطريق مناراً به يأمن السارون الضلال في تلك الفيافي وهو عمل عظيم.

وكانت قاعدة الخلافة في عهد السفاح الكوفة أولاً ثم انتقل منها إلى الحيرة ثم انتقل أخيراً إلى الأنبار ونقل إليها دواوينه وهي التي بات فيها.

ولاية العهد:

في (سنة ١٣٦) عقد السفاح لأخيه أبي جعفر الخلافة من بعده وجعله ولي عهد المسلمين ومن بعد أبي جعفر عيسى بن موسى بن محمد بن علي وكتب العهد بذلك وصيره في ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ودفعه إلى عيسى بن موسى، وقد ابتدأ السفاح بفعله هذا الغلطة

الشنيعة التي سبق بها في عهد بني أمية وهي تولية اثنين العهد وكانت من أسباب ما أصاب بني أمية من الخلاف والفرقة.

وفاة السفاح:

أصيب السفاح بالجدري وهو بالأنبار وتوفي بها في (١٣ ذي الحجة ١٣٦) ودفن بالأنبار في قصره وبلغت وفاته أبا جعفر وهو عائد من حجته.

٢ ـ المنصور

هو أبو جعفر عبد اللّه بن محمد بن علي، وأمه أم ولد اسمها سلامة ولد بالحميمة (سنة ١٠١)، ولما انتقل أبو العباس من الحميمة إلى الكوفة كان فيمن معه. ولما أفضت الخلافة إلى أبي العباس كان عضده الأقوى وساعده الأشد في تدبير الخلافة. وفي السنة التي توفي فيها أبو العباس عقد العهد لأخيه أبي جعفر وكان إذ ذاك أميراً على الحج ثم توفي السفاح وأبو جعفر بالحجاز فأخذ البيعة له بالأنبار ابن أخيه عيسى بن موسى وكتب إليه يعلمه وفاة السفاح والبيعة له فلقيه الرسول بأحد المنازل عائداً بعد انتهاء الحج. وقد تمت البيعة له في اليوم الذي توفي فيه أخوه(٨ يونيه سنة ٧٥٤) واستمر خليفة إلى أن توفي يوم الأحد سابع ذي الحجة سنة ١٥٨ (٨ أكتوبر سنة ٧٧٥)، فكانت خلافته (٢٢ سنة) هلالية إلا ستة أيام.

وكان يعاصره في الأندلس عبد الرحمٰن الداخل ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك (١٣٨ ـ ١٧٢).

ويعاصره في فرنسا بابن ببراف ثم شرلمان (٧٦٨ ـ ٨١٤) ويعاصره في مملكة الروم بالقسطنطينية قسطنطين الخامس.

الأحوال لعهد المنصور:

تولى المنصور الخلافة ولم تكن قد توطدت دعائمها ولم يكن يخاف عليها من الدولة البائدة دولة الأمويين، لأنه لم تبق لهم بقية يخاف منها وإنما كان الخوف ينتاب المنصور من ثلاث جهات:

الأولى: منافسة عمه عبد اللّه بن علي له في الأمر لما كان له من نباهة الذكر في بني العباس، لأنه كان يدبر أمر جيوش الدولة من أهل خراسان وأهل الشام والجزيرة والموصل الذي أمره عليهم السفاح قبل وفاته ليغزوا بهم الروم وقد أظهر المنصور خوفه هذا لأبي مسلم حينما جاءه الخبر بوفاة أخيه والبيعة له.